Dirassat & Abhath
The Arabic Journal of Human and Social Sciences

مجلة دراسات وأبحاث
المجلة العربية في العلوم الإنسانية والاجتماعية

EISSN: 2253-0363
ISSN : 1112-9751

بلاغة الاعجاز في القرآن الكريم (مفهومه، أنواعه ومواطنه)

The eloquence of miracles in the Holy Quran (its concept, its types and its citizens)

شريط نورة cheritte noura

أستاذ محاضر "ب"، جامعة أحمد بن يحي الونشريسي تيسمسيلت، كلية الأدب واللّغات، قسم اللّغة العربية

Assistant professor "B", University Ahmed Bin Yahya Al-Wancharissi Tissemsilt, Faculty of Literature and Languages, Department of Arabic

الايميل المهني للباحث الأول cherit.noura@cuniv-tissemsilt.dz

تاريخ الاستلام: 2021-11-15 تاريخ القبول : 2022-03-27

الملخص:

يتبخص مضمون هذا المقال في الحديث عن بلاغة الاعجاز في القرآن الكريم، وعن أنواعه ووجوهه، كما يتحدث عن بعض العلماء والباحثين الذين أدلوا بدلوهم في هذا الميدان العلمي الواسع، ومنهم القدماء أمثال الرماني، أبو إسحاق النظام، والخطابي، ومن المحدثين نجد: "مصطفى صادق الرافعي" و"سيد قطب" و"محمد سعيد البوطي".

ومن أنواع الإعجاز نجد: الإعجاز اللغوي، والإعجاز التنسيقي والإعجاز الخطابي، الإعجاز الموضوعي والإعجاز العلمي.

الكلمات المفتاحية: الإعجاز، البلاغة، التحدي، الأسلوب، الألفاظ.

Abstract:

The content of this article is summarized in talking about the eloquence of miracles in the Qur'an, its types and faces, as well as some scholars and researchers who have made their examples in this vast scientific field, including the ancients such as Al-Ramani, Abu Ishaq al-Nizm, al-Khatabi, and the modernists Mustafa Sadiq al-Rafii, Sayyid Qutb and Mohammed Saeed al-Bouti.

Some types of miracles include linguistic miracles, coordination miracles and rhetorical miracles, objective miracles and scientific miracles.

Keywords: miracles, rhetoric, challenge, style, words.

مقدمة:

في مفهوم الإعجاز منذ بزوغ فجر الإسلام والقرآن الكريم يفرض إعجازه على كل من سمعه أو قرأه، على اختلاف بلاغتهم وفصاحتهم وامتلاكهم لناصية العربية مما جعل مشركي قريش يعملون جاهدين على محاولة صد العرب عن قراءته أو حتى مجرد سماعه **{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ }**[1]، مخافة أن يؤمنوا به حين سماعه عندها يدركوا حقيقة إعجازه الذي ميزه عن قول البشر، ليثبت أنه حق، وأن هذا الرسول المبعوث الذي جاء به رسول صدق، والغريب في الأمر أنهم كانوا يدركون -حق الإدراك- ما لهذا القرآن من إعجاز لا يملك أي عربي أصيل العروبة، سليقي الفصاحة إلا أن يسلم بحقيقة قطعية الدلالة بأنه ما هو بقول بشر ولا بقول كاهن ولا بقول شاعر، إن هو إلا وحي أوحي إلى هذا النبي العربي صلوات الله وسلامه عليه.

من هنا حاول أولئك الجبابرة صد العرب عن سماعه، وذلك بترصدهم للأيام والمواسم التي تفد فيها القوافل إلى مكة -مثاب الحجاج وكبرى المدن التجارية- لتنفث بسمها وأقاويلها الكاذبة بأنه سحر، وبأنه شعر، وزعمت طائفة بأنه أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا، وذهب فريق إلى أنه إفك إفتراه وأعانه عليه قوم آخرون، وقال غير هؤلاء لو نشاء لقلنا مثل هذا مع يقينهم بأنه غير ما عرفوا من كلام البشر، وقد سجل القرآن الكريم مفترياتهم وجادلهم فيها، ولم يكتمها في العديد من الآيات والسور، يقول الله تعالى في سورة الفرقان: { **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا (4) وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (5)**}[2]، وقال عز من قائل: {بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون}[3]، وهم -بلا ريب- أدركوا من أسراره ما دفعهم إلى ذلك.

ورغم كل الأحقاد والضغائن التي تحاك حول القرآن العظيم والدواعي المغرضة، إلا أنه إستطاع أن ينفذ إلى شغاف قلوب العديد من أقوياء قريش ومشركيها، فما كان منهم إلا أن ألقوا السمع وآمنوا به، وقصة إسلام "عمر بن الخطاب" رضي الله عنه دليل على ذلك، وقصة إسلام "أسيد بن حضير" خير شاهد على ذلك، كما لا تخفى على أحد قصة "الوليد بن المغيرة"، فقد أخرج الحاكم عن ابن عباس قوله: جاء الوليد بن المغيرة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقرأ عليه القرآن فكأنه رقّ له، فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال: يا عمّ إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا ليعطوكه، فإنك أتيت محمدا لتعرض لما قبله، قال: قد علمت قريش أني من أكثرها مالا، قال: فقل فيه قولا يبلغ قومك أنك كاره له، قال: وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني لا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئا من هذا، والله إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه وإنه ليحطم ما تحته، قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه، قال: دعني حتى أفكر، فلما فكر قال: هذا سحر يؤثر عن غيره وذلك بعد فترة يسيرة من نزول القرآن حينما "عرفت قريش أن وفود العرب ستقدم عليهم موسم الحج، فأجمعوا قولهم أن يقولوا للعرب في هذا القرآن كلمة يصدون قلوب الناس عنه"[4]، فجاءوا إلى "الوليد بن المغيرة" لما عرفوا منه من فصاحة وبيان، وأوكلوا إليه مهمة الطعن في هذا القرآن بعد الإصغاء له، وكان قد أصغى إلى آيات من سورة فصلت كما سبق القول، فلما فرغ من الاستماع إليه عاد إليه خائبا مخيبا لآمالهم ومزاعمهم ومفترياتهم، فقال كلمة حسبت للقرآن لا عليه، وهي الكلمة التي ذكرناها من قبل.

وهذا إن دل إنما يدل على أنهم على علم بمدى صدق هذا القرآن وأنه ليس بقول البشر ولكنهم أبوا أن يسلموا به، وهذا ما سجله القرآن الكريم في قوله تعالى { **فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ**}[5].

وفي بعض الروايات أن "الوليد بن المغيرة" لما رد عليهم ما عرضوا له من تهم ضد القرآن، طلبوا منه أن يبدي رأيه فيه، فقال أمهلوني حتى أفكر، فلما فكر أبدى فيه رأيه الذي ذكرناه من قبل، وفي "الوليد بن المغيرة " أنزل الله تعالى ستة عشر آية من الآية 11 إلى الآية 26 من سورة المدثر، حيث قال تعالى في محكم التنزيل: { **وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدودًا (12) وَبَنِينَ شُهُودًا (13) ومَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا (14) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (15) كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيدًا (16) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (17) إِنَّهُ فَكَّرَ وقَدَّرَ (18) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (20) ثُمَّ نَظَرَ (21) ثُمَّ عَبَسَ وبَسَرَ (22) ثُمَّ أَدْبَرَ واسْتَكْبَرَ (23) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ (24) إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ البَشَرِ (25) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (26)**}[6].

ولم يسجل القرآن الكريم هذه المفتريات فحسب، بل سجل الكثير من مزاعمهم وسفاسف أقوالهم، ومنها قوله تعالى: { **وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ (103)**}[7].

وقوله عز وجل: {**وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ (69)**}[8].

وقال تعالى ردا على تهمة الافتراء:{ **أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (08)**}[9].

ومن سفاسف أقوالهم أنهم قالوا لما لم يتنزل القرآن جملة واحدة؟ فكان الرد والإفحام في قوله تعالى: {**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (32)**}[10]، "ولم يكونوا يقصدوا بهذا إلا مناهضة النبي صلى الله عليه وسلم وإنكار الرسالة"[11]، وما كان لهم إلى ذلك سبيلا.

هذه القصص ليست أساطير، وإن بدت من فرط إعجازها كالأساطير، حتى أولئك الذين افتروا على الله كذبا وتأخر إسلامهم، لما كتب الله لهم سماعه آمنوا به وتيقنوا بأنه خير جليس، وأعظم أنيس، لا يمل حديثه، ولا تنفذ عجائبه، وما زاده روعة وجمالا أنك كلما أبحرت فيه إزددت تشبثا به ورغبة فيه، وما يبعد عنه إلا من جفا قلبه وجف دمعه، وحرم نعيمه، أو قل: لا يصد عنه إلا من جعل الله على قلوبهم أكنة وفي أذانهم وقرا.

هذا هو القرآن العظيم الذي شغل العالم منذ نزوله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ذلك أنه مجلى الظلام، ومنهل البيان، الذي وقف فحول العرب وفصحاؤهم أمامه - عاجزين- مدهوشين، وهم طالما تباروا في ميدان البلاغة والبيان، وخاضوا فنون القول وأسراره، حتى أفحموا الخصوم، وألجموا الأفواه، وأسروا القلوب والأذهان بسحر بيانه، وهاهم أولاء يقفون أمامه (القرآن) مأسورين وعاجزين.

وبعد هذا التقديم الوجيز قد يتساءل سائل: ما مفهوم الإعجاز؟ وما وجوهه؟ وما هي مواطنه؟.

معنى الإعجاز لغة واصطلاحا:

الإعجاز لغة: "من المعجزة وهي الأمر الخارق للعادة المقرون بالتحدي، السالم عن المعارضة، يجريه الله على يد رسله تصديقا في دعواهم النبوة والرسالة"[12]، ومعنى إعجاز القرآن: أنه قد سما في علوه إلى شأو بعيد بحيث يعجز البشر عن الإتيان بمثله، سواء ذلك بيانه وبلاغته وفصاحته، وتشريعه وتنظيمه أو إخباره عن المستقبل أو الماضي السحيق، ولتحقق ثبوت الإعجاز لابد من توافر شروط معينة، أهمها: المتحدي ونعني به الإتيان بأمر ما على وجه الإعجاز، ولابد أن يكون الأمر المتحدى عنه خارجا عن المألوف، وأن يسوقه المدعي دليلا على صدق قوله، وان لا يحال بين المتحدي وبين إجابة التحدي بحائل خارجي، وقد تحققت هذه الشروط كلها في مسألة إعجاز القرآن فوقع التحدي بالإتيان بالقرآن كله أولا، كما جاء في قوله عزّ وجلّ: { **قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (88)**}[13].

فكانت هذه الآية أول ما نزل من آيات المعاجزة تحمل تحديا عاما وردا صريحا على من جحدوا نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم لكونه بشرا مثلهم، { **قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا (93)**}[14]، وأبوا إلا نفورا واستكبارا وكفورا، وأبوا أن يسلموا بنبوة بشر مثلهم جاء ليسفه أحلامهم وينسخ دين آبائهم ويقوض أفكارا ومعتقدات توارثوها خلفا عن سلف، وفي ذلك يقول الله تعالى: { **وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولً** }[15]، فهذه الآية الكريمة أثبتت بلا ريب بشرية الرسول صلى الله عليه وسلم وتحدتهم جهارا، وبرهنت برهانا قاطعا على مماثلة بشرية الرسول صلى الله عليه وسلم لسائر الناس، ولهذا فإن "قضية الإعجاز القرآني بدأت تفرض وجودها على العرب من أول المبعث"[16].

رغم أن لفظة "إعجاز" لم تظهر بهذه الصيغة منذ عهد النبوة ولا عهد الصحابة والتابعين، لكن معنى موجود أي: استحضار المعنى وغياب اللفظ، "ولم يرد في القرآن لفظ معجزة أو إعجاز وإنما جاء فيه ألفاظ: آية، برهان وسلطان"[17].

ولقد أشار بعض الباحثين إلى أن المعنى أهم من اللفظ مؤيدا بذلك رأي الجرجاني، ومن هؤلاء الباحثين المعاصرين الدكتور "عمار ساسي"، وذلك لعدم وجود مصطلح الإعجاز في القرآن الكريم ولا في السنة النبوية، واستدل على ذلك بقوله عز وجل: { **يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا ۚ لَا تَنفُذُونَ**

إِلَّا بِسُلْطَانٍ (33) }[18]، يعني أن كلمة الإعجاز لم تظهر صراحة في القرآن الكريم.

وقد أشار باحث آخر إلى أن كلمة معجزة تحتوي تاء، فهذه التاء "ليست تاء تأنيث ولكن بعضهم جعلها للمبالغة وبعضهم جعلها للنقل..."[19].

وقد لخص الباحث "فضل حسن عباس" الإعجاز عند الجاحظ في النقاط الآتية:

1.القرآن بليغ من حيث الألفاظ المختارة المنتقاة ومن حيث نظمه ووصفه التي تقوم على إبداع في الإيجاز والتشبيه والمجاز.

2. القرآن معجز من حيث الصرفة ولكنها تخلفت كثير من تلك التي ذكرها النظام من قبل، ولذا فهو يرد عليه في كتابه نظم القرآن فأساس نظرية الإعجاز وعمود القول فيه وبلاغته -أولا- والقول فيه بالصرفة يأتي في المرتبة الثالثة[20].

ويقول السيد "أحمد صقر" في البقلاني: "أعظم كتاب في الإعجاز إلى اليوم"[21].

ويرى الباحث الدكتور "محمد سالم محيسن" في كتابه "روائع البيان في إعجاز القرآن: "أن المعجزة في اللغة هي اسم فاعل مشتق من الإعجاز، والإعجاز مصدره أعجز، يقال أعجز فلان عن الأمر إذ حاوله فلم يستطع ولم تسمح له مقدرته وجهده.

والمعجزة شرعا: أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي، يظهره الله على يد كل رسول ليكون دليلا على صدق رسالته"[22].

وتلك سنة الله في خلقه اقتضت أن يؤيد رسله بالآيات التي هي الدليل القاطع على نبوة الأنبياء، فكانت المعجزة التي أيد بها الله نبيه الكريم -صلى الله عليه وسلم- هي القرآن الكريم في حد ذاته إذ إنه تحدى العرب في جنس ما يتقنون.

فقد تحداهم في أن يأتوا بمثله وأدحضت حججهم، وبعد أن ألف القرآن الكريم هذا التحدي العام في هذه الآية الكريمة من سورة "الإسراء"، جاء التحدي في سورة "يونس" بأن يأتوا بسورة واحدة قطعا للجدل وتقوية للحجة، وإفحاما للخصم حتى ينقلبوا صاغرين، فنزلت هذه الآية الكريمة تدعوهم إلى الإتيان بسورة من مثل هذا القرآن، وليدعوا من استطاعوا من دون الله، يقول عز من قائل: {**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ 38 بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ** }[23] .

ومن عجيب أمر هذا القرآن، ومن عجيب أمر أولئك العرب المعاندين أن تحداهم بأن يأتوا بمثل هذا القرآن فعجزوا، -وهم القائلون- لو نشاء لقلنا مثل هذا وطمعوا في معارضته لكنهم فشلوا في الإتيان بمثله ثم طاولهم في التحدي وهذا لينتقلوا من عجز إلى عجز ومن هزيمة إلى هزيمة، ويظلوا مقنعي الرؤوس لمدة ثلاث وعشرين سنة يتجرعون مرارة الذل والهوان، رغم زعمهم بأنه مجرد افتراء ودجل، فلماذا عجزوا على أن يأتوا بسورة مثله مفتريات وهم أهل بلاغة وفصاحة وسحر بيان، وفيهم الخطيب الفذ، والشاعر الفحل الذي إذا أراد أن يقول حضره شيطانه، فأنّى لهم ذلك وقد تحدتهم آية في سورة "هود" التي نزلت بعد سورة "يونس"، على أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات، وهم على يقين أنهم لو استطاعوا ذلك لكان خيرا لهم، وأنقض لقوله ونفورا للناس منه، ولكن هيهات هيهات وقد قلّ المعين، وعزّ النصير؟ يقول تعالى في محكم التنزيل: { **أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (13) فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (14)**}[24].

وكذلك جاء التحدي في آيات من سورة الطور، تدعوهم لأن يأتوا بحديث مثله، فلفته لغتهم، وبيان طوع ألسنتهم، والفصاحة والبلاغة طبعهم وسليقيتهم، يقول عز وجل: { **أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (30) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ (31) أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَٰذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (32) أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ (33) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (34)**}[25].

وبعد هذا التحدي بهذه الآيات المكية التي وقفوا أمامها عاجزين مدحورين، طاولهم -مرة أخرى- بآية في سورة البقرة تدعوهم إلى التحدي بسورة مثله، وفيها يقول عز وجل: {**وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ (23) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (24)**}[26].

فهذه الآية الكريمة كشفت عن عجزهم، وسجل الله لهم فيها الهزيمة النكراء في قوله تعالى: {**وَلَنْ تَفْعَلُوا**}.

وتحقق كون القرآن خارجا عما ألفه العرب من ضروب الكلام وصنوف القول وألوان الحديث، فاحتاروا في تصنيفه

من النثر إلى الشعر إلى سجع الكهان، {بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ (05)}[27]، إلى وصف المبعوث بالمجنون، {وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ (36) بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ (37)}[28] .

كان ذلك في زمن سما فيه شأن البيان، وجلت مكانته في صدور أهله، وعرفوا باللسن والفصاحة وقوة السبك وجودة الأسلوب في الإفصاح والإعراب عن خوالج الذات والإنابة عن مشاعر القلوب.

وما كان هذا الوصف وهذا التحدي وهذا العناد وهذا التردد إلا لأنه حير ألبابهم، وسحر عقولهم بعظيم بيانه وروعة أسلوبه، ودقة إئتلاف ألفاظه ومعانيه، فمنهم من آمن به، ومنهم من كفر، فأما الذين كفروا، فما توهموا -حقا- بأنه سحر، أو أنه شعر أو أنه سجع الكهان، لأنهم أعرف الناس بالشعر والسحر والكهانة، وأنّ تلك الأوصاف التي وصفوها بها تبين حقيقة إعجازه، لأنّه آسر قلوبهم، وسفّه أحلامهم وأدركوا قوته التي لا يضاهيها قول بشر، وعلى كل ما ألفوه وكيف لا؟ وهم على علم بصدق محمد -صلى الله عليه وسلم- الذي لم يعهد عليه كذبا ولا خيانة لعهد فكيف له أن يكذب على الله؟.

"ولكن تحقق استدلال المدعي بالقرآن على صدقه في الرسالة كما تبينه كثير من الآيات وأحاديث عدة، منها قوله صلوات الله وسلامه عليه: ما من نبي إلا وأعطي ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أتيته وحيا أوحي إلي فأرجوا أن أكون أكثرهم تابعا"[29].

وتحقق الإعجاز في عدم رد المتحدين على المتحدي، فقد حاول كثير منهم ذلك، كما ذكرت من قبل فأتوا بكلام سافل، ولاكوا ألسنتهم بسفاسف القول وخسيس العبارة، ولكن دون جدوى وهذا ما يجاري رأي "مصطفى صادق الرافعي" الذي يرى أن الإعجاز يتوقف على شيئين إثنين هما:

"ضعف القدرة الإنسانية في محاولة المعجزة مزاولته على شدة الإنسان واتصال عنايته.

وثانيهما استمرار هذا الضعف مع تراخي الزمن وتقدمه"30، ولهذا ندب الله المسلمين إلى تلاوة القرآن الكريم، وقراءة ما تيسر منه آناء الليل وأطراف النهار، واذّكار معانيه، وتدبر آياته ليهتدوا ببصائره وهداه وليستضيئوا بأنواره، حتى تكون كلمتهم هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى، وليثبت عجز الخلق عن الإتيان بما تحداهم به، وشعارهم وإيمانهم بأنها صادرة عن الإله القادر ومنه ليدركوا صدق النبوة وحقيقة الإعجاز ووجوهه وانواعه التي سنأتي على ذكر بعض منها.

"وإعجاز المنكرين للقرآن يدل على أنه كلام الله، ولو كان كلام البشر لما عجزوا على معارضته وهذا يدل على أن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم"[31].

ولهذا ظل القرآن الكريم ولا يزال معجزة على مر العصور والأزمان وهذا دليل على مصدره الرباني وانه من عند الله الذي لا إله إلا هو حيث دلت هذه المعجزة على صحة النبوة الشريفة الخالدة، فغدت معجزة القرآن والنبوة الشريفة وجهين لعملة واحدة وهي الشريعة الإسلامية[32].

أنواع الإعجاز:

الإعجاز اللغوي:

فقد فاق القرآن الكريم الذين كانوا أرباب الفصاحة والبيان بما أدهشهم من قوة السبك والألفاظ وسلاسة التعبير وجمال الأسلوب ورونقه وتفرده وعمق المعاني وجلالها، وذلك ما اعترف به أعتى المكذبين به، لإشتماله على خصائص عليا لم توجد خاصة منها في كلام بشر، ولهذا أدهش العرب لما سمعوه، وحير ألبابهم وعقولهم ببديع تأليفه ووصفه، وعجيب نظمه، ولأنه جاء في الغاية العظمى من البلاغة والفصاحة، فأعجزت بلاغته البلغاء، وأسكتت فصاحته الفصحاء، وخرج عن جميع وجوه النظم المتعارف عليها، وهل أتاك نبأ الخصم إذ هموا أن يعارضوا القرآن؟ فأتوا بكلام سافل وأسلوب فج وتراكيب هزيلة، بل زادتهم هزيمة فوق هزيمة، وباؤوا بغضب من الله وسخط من المؤمنين، من ذلك مسيلمة الكذاب الذي هم بمعارضة القرآن، ولكن هيهات هيهات، {وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ }[33].

هذا بعض عن الإعجاز اللغوي، أما عن الإعجاز التنسيقي، فهو يتعلق بأي القرآن وسوره.

فآيات القرآن الكريم تنتقل من موضوع إلى آخر بأسلوب منسجم لا اضطراب فيه ولا خلل، ولو أن أحدا من البشر حاول ذلك لظهرت في أسلوبه سمات النقص والإضطراب.

هذه الخصائص الفريدة التي ميزت القرآن الكريم هي سرّ إعجازه ألم يلفت انتباهك ذلك التناسب العجيب بين الآيات والسور؟ أليس ذلك لون من ألوان إعجاز القرآن الكريم؟ ألم

يبلغ من ترابط سوره وأجزائه وتماسك كلماته وجمله مبلغا لا يدانيه كلام؟ الأمر الذي دفع بفصحاء العرب حين سمعوه، وبعد أن تحداهم لما عارضوه لجأوا إلى تأمل القرآن سورة سورة، وآية آية، فلم يجدوا في القرآن كله كلمة في غير موضعها، بل وجدوا اتساقا يهز العقول، ونظاما والتئاما واتقانا وإحكاما لم يدع في نفس أي بليغ منهم موضع طمع، فألجمت الألسن عن أن تدعي وتقول، مع أن القرآن لم ينزل دفعة واحدة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل نزل نجوما وأحادا على حسب الوقائع والأحداث في مدة ثلاث وعشرين سنة، إلا أنه كان محكم السرد، دقيق السبك متين الأسلوب، فكيف اتسق للقرآن العظيم هذا التآلف وهذا التعانق المعجز؟ وكيف استقام له هذا التناسق البليغ؟ ألا يشهد بحق وصدق، ويدل أبلغ دلالة على مصدر القرآن، وأنه كلام الله؟.

الإعجاز البياني:

يقوم على النظم "والنظم هو ضم الشيء إلى الشيء، وتنسيقه على نسق واحد كما ينظم اللؤلؤ بأن تضم حياته بعضها إلى بعض، وقد وضع العرب هذا المصطلح للأمور المحسوسة"[34]، وهو يتعلق بالجانب اللغوي كما أشرنا، بالإضافة إلى الإعجاز البياني، تنتقل إلى نوع آخر من أنواع الإعجاز القرآني، وهو الإعجاز الخطابي ذلك أن آيات القرآن الكريم تستوعب في خطابها شتى مستويات الفهم على مختلف صنوف المعرفة والفهم والثقافة، فكل بشرى يفهم أي القرآن على حسب درجة فهمه وثقافته وقد ضرب بعض العلماء والباحثين في هذا المجال مثلا بالآية التالية: { **تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا**}[35].

فقالوا بأن العامي يفهم من البروج سطح السماء، وأن الشمس مضيئة في النهار، وأن القمر مضيء في الليل، ويفهم المثقف من كلمة "سراج" اجتماع الحرارة والنور بخلاف القمر، ويفهم أن الشمس جرم مضيء في ذاته بينما القمر جرم مظلم يستمد نوره من الشمس، هذا عن الإعجاز الخطابي.

أما عن الإعجاز الموضوعي، فقد وفّى القرآن العظيم بالمواضيع التي عالجها بجميع حاجات البشر منها المعنوية والمادية، ومنها الخاصة والعامة والعاجلة والآجلة.

قال عز جلاله وتقدست أسماؤه {**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ**}[36]، ومعنى هذا أن القرآن الكريم جاء بكل ما يفي حاجات البشر في جميع الأحوال وعلى مدى الأزمان وعلى اختلاف الأمكنة، ذلك أن القرآن الكريم يقصد إلى إصلاح الأخلاق والعبادات والعقائد وغير ذلك.

ومن وجوه الإعجاز -أيضا- هناك الإعجاز الغيبي، إذ إنّ القرآن الكريم يحوي كثيرا من أخبار الغيب السابق، واللاحق فمن أخبار الغيب الماضي، قصص الأنبياء مع أممهم والحوادث الغابرة من عهد آدم، ومن أخبار الماضي خبر انتصار الروم على الفرس بعد وقوع العكس، {**الم (01) غُلِبَتِ الرُّومُ (02) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (03) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (04) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (05) وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (06)**}[37].

يستفاد من الآية أن الروم وهم أهل كتاب انهزموا أمام الفرس وهم وثنيون، وذلك سنة 614م، ففرح المشركون بهزيمتهم وقالوا للمسلمين إن الروم يشهدون أنهم أهل كتاب وقد غلبهم المجوس، وأنتم تزعمون أنكم ستغلبوننا بالكتاب المنزل عليكم، فتوعدوهم بالغلبة كما غلبت فارس الروم، فنزلت هذه الآية تبشر المؤمنين بأن هزيمة الروم هذه سيعقبها انتصار في بضع سنين، وذلك سنة 622م الموافق للسنة الثانية للهجرة.

أما عن غيب الحاضر: فيتعلق بالذات الإلهية والملائكة والجن والجنة والنار مما لم يكن للرسول صلى الله عليه وسلم سبيل إلى رؤيته.

أما عن غيب الماضي: تتمثل في تلك القصص التي يحفل بها القرآن الكريم، يقول تعالى: { **تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ** }[38].

ومنها قصة مريم وفيها يقول الله تعالى: { **ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ** }[39].

الإعجاز العلمي:

ويتجلى فيما قرره القرآن الكريم مما يتعلق بالعلم وأضحت في عصرنا حقائق علمية كشف عنها الطب الحديث والتي لم تكون معروفة وقد لا تصدقها بعض العقول، يقول

عز وجل: { **بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ** }[40].

هذا هو القرآن العظيم الذي شغل العالم وأذهل البلغاء والفصحاء، فظلوا منكسي الرؤوس لمدة تزيد عن العشرين سنة، ما وجدوا ما يقولون، بل وأكثر من ذلك مضى القرنان الهجريان الأول والثاني دون وقوع أي جدل حول تحقق إعجاز القرآن ثم خلف من بعدهم خلف خاضوا في قضية الإعجاز فمنهم محسن ومسيء، وألف فيه كثيرون لا يسعني الحديث عنهم في هذا المجال ولكن مع حلول القرن الثالث الهجري ظهر ما يعرف بمذهب الصرفة، وهو أن القرآن لم يعجز العرب ببلاغته إنما بصرف العقول عنه وأشهر من قال بذلك هو عالم المعتزلة: "أبو إسحاق النظّام"، ومن الباحثين القدماء الذين خاضوا في هذا الميدان الرمّاني (علي بن عيسى)، وكان مؤيدا لمذهب الصرفة، ومخالفا للنظام في إنكاره للإعجاز البلاغي للقرآن، وبين أن إعجاز القرآن يتمثل أساسا في بلاغته وكذلك الخطابي له مؤلفات عديدة منها: إعجاز القرآن، فقد أيد مذهب الصرفة وأكد على إعجاز القرآن.

وكذلك (الباقلاني) صاحب الرسالة "الرسالة الشافية" و"دلائل الإعجاز" وكذلك الإمام الرازي.

وظهر بعد ذلك باحثون خاضوا في شرح هذه المسائل منهم: مصطفى صادق الرافعي، في كتابه "إعجاز القرآن والبلاغة النبوية"، كذلك "سيد قطب" في تفسير الضلال والتصوير الفني في القرآن، كذلك "محمد سعيد البوطي" في كتابه "روائع الإعجاز" وهذا الإختلاف حول الإعجاز دليل على إعجاز القرآن العظيم لأن إعجازه يشمل جميع الوجوه لا وجها واحدا، ولهذا حاولت ذكر قليل مما كتب وألف في الموضوع.

خاتمة:

ويبقى موضوع الإعجاز في القرآن الكريم حقلا خصيبا للدراسات البحثية رغم قدمه، إلا أنه يظل نبعا فياضا لينهل منه العلماء واللغويون، وقد عرف هذا الموضوع اهتماما –في بدايته- على يد الجاحظ في كتابه "نظم القرآن"، فإضافة إلى مجهودات عبد القاهر الجرجاني، حيث إستطاع الكشف عن أسرار البيان من خلال نظريته الت تبناها وهي نظرية النظم، ثم ظهرت ملامح الإعجاز العلمي على يد الإمام أبي حامد الغزالي وصولا إلى العصر الحديث والدراسات المعاصرة التي اهتمت به اهتماما بالغا.

وتداول البحث في أنواع الإعجاز ووجهه، حيث وصل العلماء والباحثون إلى ما يسمى بالإعجاز اللغوي ثم العلمي والخطابي ثم الإعجاز البياني العلمي، ذلك أن الإعجاز البياني ظهر قبل الإعجاز العلمي.

وللإعجاز القرآني مقاصد وغايات نبيلة منها: حفظ القرآن من التحريف والتبديل، ومن مقاصده -أيضا- دعوة المسلمين إلى التمسك بالعقيدة وملازمة القرآن وبيان لعظمة الخالق عز وجل.

قائمة المصادروالمراجع:

القرآن الكريم برو اية حفص عن عاصم.

1. سامي محمد هشام حريز، نظرات من الإعجاز البياني في القرآن الكريم نظريا وتطبيقيا، عمان، دار الشروق، ط1، 2006.
2. صفي الرحمان كفوري، الرحيق المختوم، دار المحسن بالجزائر، طبعة جديدة.
3. صلاح عبد الفتاح الخالدي، إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني، دار عمان، ط1، 2000.
4. عائشة عبد الرحمان، مسائل الإعجاز البياني القرآني، جامعة القرويين، المغرب، ط3، د.ت.
5. عمار ساسي، الإعجاز البياني في القرآن الكريم، دار المعارف البليدة، الجزائر، ط1، 2003.
6. فضل حسن عباس، إعجاز القرآن، جامعة القدس المفتوحة، ص2، 1997.
7. محمد سالم محيسن، روائع البيان في إعجاز القرآن، ط1، 1423هـ.
8. مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، د.ط، 2005.
9. نعيم حمصي، فكرة إعجاز القرآن من البعثة إلى عصرنا الحاضر، مؤسسة الرسالة بيروت، لبنان، ط2، 1400هـ-1980م.

قائمة الإحالات:

[1]- سورة فصلت، الآية 26.

[2]- سورة الفرقان، الآية 4، 5.

[3]- سورة الأنبياء، الآية 5.

[4]- صفي الرحمان كفوري، الرحيق المختوم، دار المحسن بالجزائر، طبعة جديدة، ص84، بتصرف.

[5]- سورة البقرة، الآية89.

[6]- سورة المدثر، الآية 11- 26.

[7]- سورة النحل، الآية 103.

[8]- سورة يونس، الآية 69.

[9]- سورة الأحقاف، الآية 08.

[10]- سورة الفرقان، الآية 32.

[11]- عمار ساسي، الإعجاز البياني في القرآن الكريم، دار المعارف البليدة، الجزائر، ط1، 2003، ص27.

[12]- المرجع نفسه، ص11، بتصرف.

[13]- سورة الإسراء، الآية 88.

[14]- سورة الإسراء، الآية 93.

[15]- سورة الإسراء، الآية 94.

[16]- عائشة عبد الرحمان، مسائل الإعجاز البياني القرآني، جامعة القرويين، المغرب، ط3، د.ت، ص40.

[17]- نعيم حمصي، فكرة إعجاز القرآن من البعثة إلى عصرنا الحاضر، مؤسسة الرسالة بيروت، لبنان، ط2، 1400هـ- 1980م، ص 23.

[18]- سورة الرحمان، الآية 33.

[19]- فضل حسن عباس، إعجاز القرآن، جامعة القدس المفتوحة، ص2، 1997، ص08.

[20]- فضل حسن، المرجع نفسه، ص09.

[21]- عائشة عبد الرحمان، المرجع السابق، ص33.

[22]- محمد سالم محيسن، روائع البيان في إعجاز القرآن، ط1، 1423هـ-، ص11.

[23]- سورة يونس، الآية 38، 39.

[24]- سورة هود، الآية 13، 14.

[25]- سورة الطور، الآية 30...34.

[26]- سورة البقرة، الآية 23، 24.

[27]- سورة الأنبياء، الآية 05.

[28]- سورة الصافات، الآية 36، 37.

[29]- محمد سالم محيسن، روائع البيان في إعجاز القرآن، ض11.

[30]- مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، د.ط، 2005، ص97.

[31]- صلاح عبد الفتاح الخالدي، إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني، دار عملن، ط1، 2000، ص17.

[32]- سامي محمد هشام حريز، نظرات من الإعجاز البياني في القرآن الكريم نظريا وتطبيقيا، عمان، دار الشروق، ط1، 2006، ص24.

[33]- سورة لقمان، الآية 27.

[34]- فضل حسان عباس، المرجع السابق، ط2، 1997، ص53.

[35]– سورة الفرقان، الآية 61.

[36]– سورة النحل، الآية 89.

[37]– سورة الروم، الآية 1....6.

[38]– سورة هود، الآية 49.

[39]– سورة آل عمران، الآية 44.

[40]– سورة يونس، الآية 39.